المحاضرة الثانية: اللغة والمجتمع

أ/سارة مسعوداني

لا يزال سؤال اللغة داخل المجتمع يثير العديد من النقاشات بين النخب المجتمعية على اختلاف مشاربهم الفكرية، وتوجهاتهم الإيديولوجية، من هنا نشأت طروحات متعددة؛ تتراوح بين الطروحات الإيديولوجية والطروحات المعرفية وبين الشق الأول والشق الثاني يجد الاتجاه البراغماتي (النفعي) لنفسه مساحات أكبر في بسط رؤيته للمسألة اللغوية مستعينا بما جادت به وسائل التأثير، حتى صار اليوم مقارنة بالاتجاهين السابقين أقدر على إعادة رسم خرائط المشهد اللغوي المغربي، على الأقل في صفوف الفئات الشعبية، ساعده في ذلك امتلاكه لوسائل الإعلام والاتصال واقتناع فئة من المثقفين بطروحاته التبشيرية البراقة.

والمجتمع كفضاء للتعايش من القديم لم يكن ينفك عن قضايا اللغة، بل يمكن القول إن اللغة حظيت في كل الحقب التاريخية للمجتمعات البشرية، نقطة الاهتمام البالغة، تجلى ذلك بالاهتمام بها دراسة وتقعيدا وكتابة، وتطويرا في جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية، وهذا ما تسجله لنا الكتب التي دونت فها مجهودات المهتمين بالشأن اللغوي عبر العصور، التي كانت فيها الكتابة.

حين نتكلم عن العلاقة بين اللغة والمجتمع، أو عما تؤديه اللغة من وظائف عديدة في المجتمع ينبغي أن نعرف كلا من هذين المصطلحين: **فالمجتمع** ومجموعة من الأفراد والجماعات تعيش في موقع جغرافي واحد وتربط بينها علاقات اجتماعية وثقافية ودينية، ومن ذلك نجد أنّ العناصر التي تكّون المجتمع تتمثل في: إدراك أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم يكوّنون وحدة واحدة، **واللغة** هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، كما عرفها "ابن جني"، فهي ما يتكلمه أفراد مجتمع معين، ورغم أن هذين التعريفين يعبران عن تصوير شامل لكل من المصطلحين فإن هذه الشمولية تقدم لنا فائدة كبيرة خاصة حين يتبين لنا أن هناك أنواعا عديدة من المجتمعات علينا أن ندرسها، وأن الكلام في المجتمع يمكن أن يظهر في

أشكال مختلفة غاية الاختلاف، وأن بعض المجتمعات قد تكون متعددة اللغات فيستعمل عدد كبير من أفراد المجتمع أكثر من اللغة.

واللغة ترتبط بالمجتمع، وتشغل فيه مكانا ذا أهمية أساسية، إذ هي أقوى الروابط بين أعضاء المجتمع، وهي في الوقت نفسه رمز إلى حياتهم المشتركة وضمانا لها وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه، وإنما هي عامل مهم للترابط بين جيل وجيل، ولقد تناول الباحثون الروابط بين اللغة والمجتمع، وقدموا لنا العديد من الأبحاث القيمة فإذا نظرنا إلى تاريخ علم اللغة فمن النادر أن نجد أبحاث في اللغة تكون منعزلة انعزالا تاما عن تاريخ تلك اللغة، أو توزيعاتها الإقليمية والاجتماعية أو ارتباطها بالأشياء، والأفكار، والأحداث، والمتكلمين، والمستمعين، ومن هنا نجد إخفاق المقاربات البنيوية والصورية التي حاولت أن تعزل الظاهرة اللغوية عن سياقاتها الاجتماعية والثقافية في حياة الناطقين بها، ومن هنا كانت العودة بالدراسات اللغوية في المقاربات ما بعد البنيوية والتوليدية لتشمل كل سياقات التخاطب، فهذا فيرث (J.R.Firth) يقترح بفكرة السياق التي تشبه المقام الذي نص عليه علماء اللغة العربية قديما، فالكلام عنده ليس ضربا من الضوضاء يلقى في فراغ، وإنّما مدار فهم الكلام والقدرة على تحليله إنّما يكون بالنّظر إليه في إطار اجتماعي معين، هذا الإطار له عناصر متكاملة وضرورية في عملية الفهم والإفهام.

أمّا عن الروابط بين اللغة والمجتمع، فالتركيب الاجتماعي يؤثر في شكل التركيب اللغوي والسلوك والدليل على ذلك ظاهرة (تدرج السن)، حيث يتكلم الأطفال الصغار بطريقة تختلف عن الطريقة التي يتكلم بها الأطفال الأكبر سنا، وقد أثبتت الدراسات أنّ التّنوعات اللّغويّة التي يستعملها المتكلّمون تعكس أمورا مثل الأصل الإقليمي، أو الاجتماعي، أو العرقي، وقد تعكس النوع كما كشفت دراسات أخرى، كما أنّ التركيب اللّغوي والسلوك يؤثران في شكل التركيب الاجتماعي. وهذا ما تقول به فرضية وولف وما يدعيه برنستين من أنّ اللّغات وليس المتكلّمين بها يمكن أن تكون لها السيطرة اقتصادية واجتماعية من أفراد نوع على أفراد نوع آخر. فاللغة والمجتمع يؤثر أحدهما في الآخر، فقد قدم ديتمار N.Dittmar نظرة ماركسية يزعم فيها أن

السلوك اللغوي والسلوك الاجتماعي في حالة تفاعل دائم، وأن حالات الحياة المادية عامل مهم في هذه العلاقة.

وعلم اللغة الاجتماعي هو محاولة لإيجاد روابط بين التركيب الاجتماعي والتركيب اللغوي، وملاحظة أي تغيرات تحدث، أي إنه محاولة في لوصف وتفسير استعمالات اللغوية في علاقتها بالنسيج الاجتماعي. وانطلاقا من تحليل تشومسكي للغة على اعتبار أنها واحدة من خصائص النوع الإنساني في مكوناته الأساسية، فاللغة تدخل بطريقة جوهرية وسلسة في كل من الفكر والفعل، والعلاقات الاجتماعية، على ضوء هذا سنقوم بتحليل علاقة اللغة بالمجتمع من خلال التطرق إلى مجموعة من النقاط الجوهرية التي تمس كل من اللغة والمجتمع في علاقاتهما.

وظائف اللغة في أي مجتمع تتمحور حول: **الوظيفة النفعية:** أو كما يطلق عليها بوظيفة أنا أريد، التي تسمح للفرد بإشباع حاجاته الأساسية داخل المجتمع الموجود فيه، **والوظيفة التنظيمية:** من خلال اللغة يستطيع الفرد التحكم في سلوكه وسلوك الآخرين. فاللغة تجعل للمعارف والأفكار قيمة اجتماعية، من خلال دورها في الاحتفاظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية، ونقل ثقافة المجتمع من جيل إلى آخر، فهي تزود الفرد بأدوات التفكير فهي وسيلة التعلم الأساسية التي تساعد الفرد على تكيف وضبط سلوكه مع المجتمع، هذا الذي يؤكد على أن العلاقة بين اللغة والمجتمع من منطلق وظائف اللغة هي علاقة متجذرة يصعب الغائها لأنه وبدون اللغة لما استطاع الانسان التعايش في مجتمعه وتأقلم مع أفراده؛ فهي **علاقة تأثير وتأثر متبادلة،** فهي أهم مميزات الإنسان الاجتماعية، فكلهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، فهناك نوع من التفاعل والتداخل الذي قد يصل إلى مرحلة التطابق بين سلوك الكلام والممارسة الاجتماعية، فاللغة هي العنصر الرئيسي الذي يميز المجتمعات البشرية فهي أساس بناء وبقاء المجتمع، كما أنّه ليس هناك وجود للغة خارج نطاق المجتمع؛ لأنّها هي حصيلة اجتماعية ناتجة عن تراكمات تاريخية.

مقتطفات من كتاب عبد الواحد الوافي اللغة والمجتمع:

_اتساع حضارة الامة، وكثرة حاجاتها ومرافق حياتها، ورقي تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، ونهضت لغتها، وسمت اساليبها وتعددت فيها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات جديدة عن طريق الوضع والاشتقاق، والاقتباس للتعبير عن المسميات والافكار الجديدة.....وهلم جرا.

انتقال الأمة من البداوة الى الحضارة يهذب لغتها، يسمو باساليبها ويوسع نطاقها، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة.(كالعربية قبل وبعد الاسلام). وخير مثال عن ذلك قول الشاعر الذي لم يسعه شيطانه في وصف احد الامراء حيث قال:

أنت كالكلب في حفاظك للعهـ ـد وكالتيس في قروع الخطوب

ولكن بعد أن هذبت لغته في حضارة بغداد، جاد بمثل قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

مظاهر النشاط الاقتصادي تبطع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها واساليبها وتركيبها، ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعا لاختلافها في نوع الانتاج، ونظم الاقتصاد وشؤون الحياة المادية، والمهنة السائدة، (الزراعة الصناعة التجارة الصيد رعي الاغنام.....)، حيث تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها، كما قد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان معينين الى تشكيل أعضاء نطق خاصة في نطق الاصوات والنبرات وبالتالي تشكيل لغة خاصة وجديدة.

اللغة أيضا مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة، فعقائد الامة وتقاليدها، وما تخضع له من مبادئ في نواحي التشريع والقضاء والاخلاق والتربية وحياة الاسرة..... ما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير.... وكل ذلك يصبغ اللغة صبغة خاصة من المستويات اللغوية المختلفة على الجانب الصوتي الصرفي.....، ومن أمثلة ذلك اختلاف درجة القرابة التي تربط الفرد بأسرة أبيه أو أسرة أمه في الغرب (عم ، عمة، خال، خالة،) اختلاف الضمائر

في استخدام الضمائر بين العربية وفي الفرنسية (أنت، أنتم، vous)، حيث تظهر الطبقية في المجتمعات الفرنسية، ويغيب ذلك في المجتمعات العربية حيث كان العرب قديما يساوون بيت الجميع ويستخدمون ضمير المفرد انت.....

واختلاف طبقات بعض الأمم، ما يفعلها من فوارق في مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، كل ذلك يؤدي الى التمييز بينها في المنفردات التي تطلق على شؤون كل طبقة منها، واليك مثلا المفردات التي تطلق على أنواع الدخل و الأجور؛ حيث يختلف اسم أجر (راتب) الفقراء والمزاولون لمهن بسيطة ومهن راقية في اللغة الفرنسية.....

وكثيرا ما ينجم عن اختلاف الناس وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى، ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة والواحدة، من فروق في الخواص النفسية وشؤون السياسة، الاجتماع الثقافة والتربية ومناحي التفكير، ومستوى المعيشة، وحياة الأسرة والتقاليد والعادات... (انشاء مصطلحات خاصة)

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الامة العامة ومطامحها ونظرتها للحياة؛ فالانجليزي من الناحية العلمية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية في مفرداتها وتراكيبها، حتى أنّه ليقال: " دفع زيادة أو تحية، أو شكرا أو انتباها"، "وانفق وقته في كيت وكيت"، و "تربح الساعة أو تخسر"، بدلا من أدى زيادة أو قدم تحية أو شكرا، وأبدى انتباها وقضى وقته في عمل ما، الساعة تقدّم أو تؤخر".

وكما يكون عليه الأفراد من حشمة أو أدب في شؤونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض يبعث كذلك صداه في لغتهم والفاظها وتراكيبها.....

وخصائص الأمة العقلية ومميزاتها في إدارك والوجدان والنزوع، ومدى ثقافتها ومستوى تفكيرها ومنهجها وتفسيرها لمظاهر الكون وفهمها لما وراء الطبيعة، ..كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه في لغتها، ففي الامم البدائية.....

يتطور مدلول الكلمة في لغة ما تبعا لتطور الشّؤون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول، فكل تطور من هذا القبيل يتجه لمدلول الكلمة وجهة خاصة، وينحرف به قليلا أو كثيرا عن

أوضاعه الأولى، والأمثلة عن ذلك كثيرة غير محدودة في للغة العربية ككلمة "القطار".....

_انتقال الكلمة من العام الى الخاص:

_انتقالها من الخاص الى العام:

_اتساع مدلولها:

_تغير دلالتها: